

مدخل إلى فلسفة الإقبال طلب العلم وتحدي التعقيد

رضا بنكيران

أستاذ منتسب متفرغ، كرسي التعقيدات ∞ الإنسانية، كلية إدارة الأعمال الأفريقية، جامعة محمد السادس،
متعددة التخصصات التقنية (UM6P)
Africa Business School, Université Mohammed VI Polytechnique (UM6P)
reda.benkirane@um6p.ma

ملخص

يواجه نساء هذا القرن ورجالهم، سواء كانوا يدعون الانتساب إلى العلوم والتقنية، أو إلى الفنون، أو الثقافات والأديان، مشكلة عالمية تتمثل في ارتفاع درجة حرارة الكوكب وربما البقاء على قيد الحياة. تتلخص هذه المعضلة في السؤال التالي الذي يُطرح حول الأمثلية الرياضية: كيف يمكن أن "نعبد" العالم (أي نغطي سطحه) دون إرهاق الزمان والمكان وإغراقهما في هذه المرحلة الانتقالية التي تفتقر فجأة إليهما؟ كيف يمكننا أن نفعل ما هو أفضل بموارد أقل بكثير؟ إن وجودنا الآن مقيد بـ"الكوارث" بالمعنى الطبولوجي للمصطلح، أي التفردات التي تحدث عند "حواف الأشكال" (رينيه ثوم). يتم الآن فرض علينا هندسة تقييدية بصفتها أفقا لا يمكن تجاوزه. إن حضارة ما بعد الغرب القادمة التي ستكون عالمية، وقد لا تكون سيحتم عليها تحويل عهد الكم والنمو إلى عهد الجودة والأتزان.

الكلمات المفتاحية

عمران، إقبال، حق، الحضارة، طلب العلم، إنتاج المعنى، الاستشراق، التعقيد، العقلانية المرنة، الروحانية النشطة.

How to cite this paper:

مدخل إلى فلسفة الإقبال طلب العلم وتحدي التعقيد. رضا بنكيران، R. (2023).
أفريقيا العالمية، العدد (4)، الصفحات 211-207. pp.

<https://doi.org/10.57832/5c71-hn82>

Received: October 10, 2023

Accepted: October 12, 2023

Published: December 20, 2023

© 2023 by author(s). This work is openly licensed via [CC BY-NC 4.0](https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/)

1 كان رينيه ثوم (1923-2002) عالم رياضيات وعالم أبنيمولوجيا فرنسيًا، وهو مؤسس نظرية الكوارث (المصدر: ويكيبيديا).

عمران، ملء الفراغ والزمان

إذا كان علينا أن نلخص الوضع الراهن للبشرية في كلمة واحدة، سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ، لقلنا إنه مُكبَّسٌ في زمان ومكان متقلصين بشكل خطير. تؤكد العلوم أنّ الاحتباس الحراري ناتج عن جنس بشري غازٍ وتوسعي، وأنشطة ضارة وسامة، وحالات نموّ وزوائد تلعب دور قوى جيوفيزيائية مفسدة للمحيط الحيوي. إنّ الضغط الذي يُمارس على المكان وكذلك تسارع الزمان يعينان اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أنّ التحدي الحضاري للتغلب على المشاكل التي يطرحها المناخ يتمثل في إيجاد طريقة أو أكثر لملء المكان والزمان دون تلوينهما أو تشبعهما أو استهلاكهما. فحتى التحول الرقمي، الذي رُعم زوراً أنه عملية لا مادية، يفاقم هذا التشبع الجسدي عبر تسارع مستمرٍ يؤثر في نفسية الأفراد. لذلك يجب الإعلان عن هذا الخبر السيء: المعادلة التي يتعين حلها والتمثلة في كيفية تحقيق الأداء الأفضل بأقل موارد- ليست من النوع الخوارزمي، بل تدرج ضمن هندسة تقييدية حيث يجب فهم التعقيد بعيداً عن المقاربة الكلاسيكية لشبكة عُقدتها ومداهما الشبكي، وإنما في ترتيب طبيعتها وتعدد تنبئياتها (multi-plexité) (مدينة متعددة الطيات) من المادة والقطع الأثرية والقمامة.

تعبّر الكلمة العربية "عمران" عن مفهوم "المأبشيء" وهو في الأساس "طيّ" للزمان والمكان. يعرف ابن خلدون² الحضارة بدقة على أنها علاقة أساسية بالزمان والمكان، مثل "نوع من المناخ" الخاص بجسمانية معينة "المأ" وفق نمط أو شكل محدد، لحجم أو مدة معينين) - وليست في حقيقة الأمر إحالة على شكل من أشكال التحضر أو الكياسة، أو مدينة بوليس الإغريقية. بالنسبة إلى المؤرخ المغربي، الذي يعتبر رائداً في علم الاجتماع، تدخل الحضارة في أزمة وتتدهور ثم تموت حينما تفقد قدرتها على التمهيدي - أي قدرتها على أن تملأ وتحيي على أحسن وجه مجالها الجوهري - وحين تؤدي علاقاتها بالزمان والمكان إلى تحلل مشهدها وأفقها المتطورين. ففي مواجهة أزمة الحضارة التي تتجلى في الاضطراب المناخي، وجائحة كوفيد، وتزايد الفوارق بين الناس، وندرة الموارد الطبيعية، وذوبان القطبين، والقارة البلاستيكية السادسة، وحركات الهجرة، والتوترات الهوائية، والتطرف بأنواعه، وما إلى ذلك، هناك إغراء كبير للانزواء في حالة من الحنين) والنظر إلى المستقبل[المنشود] بوصفه ذكرى تستعيد ماضياً مثاليًا. هذا الموقف الملتفت إلى الماضي - "كأنه ليس في الإمكان أحسن مما كان" - هو بحد ذاته رد فعل مرضي ومتأخر لحضارتنا المعولمة. إذ أنه يكشف مرة أخرى في ثقافات وديانات مختلفة، عن عملية انكماش الحاضر نفسها على الماضي، وهو زمن ولّي، لا معنى له، أو هو بعيد المنال، وغالباً ما يتم تحويله إلى أسطورة. يبدو جلياً أن حلّ المشاكل الراهنة للبشرية لا يكمن في ماضٍ يتمثل باعتباره مثلاً يُحتذى به، أي ماضٍ يُستخلص من المسار الزمني الخاص بظروفه الأولية، علماً بأن الزمن ذو طابع لا رجعة فيه وأنّ "المرء لا يستحم في النهر مرتين". إنّ وجود مثل هذا الماضي، الذي بالمقابل نمتنع عن إعادة قراءته بصفة نقدية، يكرّس إعادة إحياء التقاليد التي لا تغيّر من العالم شيئاً، ولا تستشرف المخاطر القادمة.

السلف: البحث عن المعنى وتمجيد الماضي

في هذا السياق المعولم، وبصفة خاصة في الوسط الإسلامي، كان ما يعرف بـ"الإصلاح"، على مدى أكثر من قرنين، ردة فعل على الحضارة الغربية وهيمنتها المبنية على انتصارها المادي وعلى تطور الصناعات والعلوم والتقنيات. اختار المفكرون المسلمون، الذين أرادوا الخروج من القيود التقليدية الخاضعة للنير الاستعماري والأهداف الإمبريالية، نهج الوطنية والتعليم الجماهيري للنهوض بالمجتمعات الأفريقية والآسيوية. أمّا على الصعيد الروحي، فقد تبنوا عودة إلى الجذور تمثّلت في تمجيد المرحلة التاريخية للأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين المطابقة لعصر الأسلاف الصالحين وتقديمها باعتبارها نموذجاً للاحتذاء به.

2 كان ابن خلدون (1332-1406) مؤرخاً واقتصادياً وجغرافياً وديموغرافياً ورائداً لعلم الاجتماع ورجل دولة (المصدر: ويكيبيديا).

لقد خصصنا فصلاً عن جدوى مقارنة ابن خلدون لمفهوم العمران في عصرنا في كتابنا (بالفرنسية): "البابلية الهوائية": الشباب، الانتماء المعاصر للإسلام والعروبة:

Le Désarroi identitaire. Jeunesse, islamité et arabité contemporaines, Paris, Cerf, 2004, Casablanca, La Croisée des Chemins, 2012, pp. 117-127

في هذا الكتاب فصلنا القول في الخصائص الرئيسية لعلمه السياسي المتعلق بالحضارات: (ص. 122-125).

إنّ هذه النمذجة لمرحلة الأصول، أي التاريخ الذي تم إفراغه من تاريخيته وتأمّله في ذاته، ليست اليوم عاملاً مهيمناً إلى حد كبير فحسب، وإنّما هي أيضاً عامل تأثير في عقول ما يقرب من 1.7 مليار مسلم. ويعني انتشارها أنها تعمل "كبنية أسطورية وصوفية" حيث، وفقاً لأصل الكلمات، يرتبط "القديم" و"الديني" بـ"المقترَض منه" (السلف) و"الدِّين" (الدِّين): يتمّ عيش تجربة الإيمان والتفكير فيها على أنّها "دِين" (ندين به إلى) ماضٍ تليد. لكن لا بُدَّ من الإشارة إلى أنّ هذه البنية الأسطورية، التي تهيمن على كل التيارات الدينية للإسلام المعاصر، لم تستطع أن تنتج ثورة فكرية، أو تجديداً للعقلانية، أو فورة إبداعية، أو حتى صحوّة دينية وروحية مبشّر بها، تتناسب مع الحكم المادي والاستهلاكي الذي يعصف بالأحياء، والجو، والبرّ، والبحر. يقول هيراقليطس: "عيونهم يقظة ولكنهم نيام". نحن بعيدون كل البعد عن تصوّر الحضارة الإسلامية الاستشراقية لعالمية مستنيرة تمثّل عُصارة التقدّم الإنساني بإمكانها أن تكثّف مستويات واسعة وعميقة من المعرفة والاستكشافات والاكتشافات، وإنتاج العلوم التجريبية والفيزياء والميتافيزيقيا. تبدو الحداثة في الإسلام هنا أيضاً شبيهة بالعصر الذهبي، أي بمسار يبدو أنه محكوم عليه ألا يكون موجوداً إلا إذا عدنا في الزمن ألف سنة إلى الوراء.

إقبال: البحث عن العلم والإيمان بالعمل والمستقبل

في مواجهة المأزق الكوني الحالي بسبب حادثتنا المفردة القائمة على السّلعة المبالغ فيها، ومبدأ "دعه يعمل دعه يمرّ"، وتحقيق النمو الاقتصادي بأي ثمن كان، والسيطرة على الأفراد الذين (يُعاملون بوصفهم قطيعاً من الماشية موضوعاً عرفانياً) والتلاعب بهم عبر تكنولوجيا المعلومات؛ وأمام الأفكار التي غالباً ما تجد نفسها مقيدة بـ"الخوف من التفكير" (الذي ينجم في الإسلام عن السيطرة اللاهوتية والسياسية)، ينبجس الإقبال كبنية أسطورية جديدة تتّجه بحزم نحو المستقبل بُغية حلّ ألغازه. إنّ الإقبال، وهو نتاج بحث مكثّف على مدى عقد من الزمن وعمل ميداني في المغرب العربي والساحل والمشرق وأوروبا، يعبّر عن طريقة، عقلانية وروحية في آن واحد، للعيش في الحاضر، ونهجا بناءً للمستقبلات المحتملة والمُتصوّرة.

فقيمة الإقبال تكمن في نظر الأغلبية، في كون هذا المفهوم في حدّ ذاته هو في حقيقة الأمر عملية إنتاج للمعنى، متّصلة في الشبكة الدلالية لجذره العربي/السامي (ق، ب، ل)، الذي تشير مجموعة المفردات المشتقة منه بشكل لا لبس فيه إلى ميل المرء إلى تجاوز حدود ذاته، للذهاب إلى الأمام عوض الخلف وإلى وضع آفاق زمانية ومكانية، والنظر في كل ما هو غير مكتمل يجب إنجازها تجاه الآخر والقادم، ومواجهة الضدّ والمتناقض. إنّ الإقبال ليس فكرة مستوردة، بل هو مفهوم محليّ وفي متناول الفهم. وهو، قبل كل شيء، مفهوم عملي لإعادة صياغة العلاقات مع المعرفة، والاقتصاد، والبيئة، والسياسة، والقانون، والغريبة، والجنسانية. يحمل هذا المفهوم اسم الفيلسوف الهندي الباكستاني محمد إقبال الذي، من خلال كتابه البسيط، لكنّه على درجة كبيرة من الأهمية: "إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام" (المكتوب باللغة الإنجليزية والمنشور في عام 1930) تمكن للتوّ من الارتقاء إلى مرتبة أهمّ فيلسوف مسلم في القرن العشرين. تسلك فلسفة إقبال إذن نهج ابتكار الحداثة في الإسلام عبر حوار مع علوم ومعارف عصره كما تصوّرها هذا الأديب الذي عُرف، بصفة خاصة بكونه "شاعر الشرق".

ينبع فكر الإقبال من مفهوم إسلامي: "البحث عن المعرفة"، أي "طلب العلم" الذي يحثّ عليه المؤمنون ويحفّزهم على طلبه في أقاصي الأمصار الحديث القائل: "اطلبوا العلم ولو في الصين". إنّّه يصبو إلى فلسفة الاحتمال المنفتحة على آفاق جديدة تحركها عقلانية مرنة يمكنها بسهولة حالما واجهتها مفارقة، أو معضلة معقدة (أبوريا)، أو تناقض مهما كان عميقاً أن تتصدّى لها [أو له]. لا يتجمّد هذا الفكر، ولا يعمل بالاتجاه المعاكس لسير الزمن. إنّّه لا يتقلّص عند التركيز على المؤلف أو عبر تعمد الحفاظ على الخلط بين الذاكرة والمستقبل، بل يطلق عملية معرفية تحشد كلّ ما وفي وسعها من مقاربات العقلانية والنقد والتعقيد. إنّ المفهوم الإسلامي "للبحث عن العلم" ليس غاية في حدّ ذاته وإنّما هو مسار رشيد لاستكشاف احتمالات ممكنة وتحديد حلول للتحديات المجتمعية والاقتصادية والبيئية الهائلة لهذا القرن.

حَقٌّ، واقع، حقيقة، قانون، ألوهية

إذا كان طلب العلم وسيلة وليس غاية في حد ذاتها، فماذا يمكن أن يكون إذن هدف فلسفة الإقبال؟ يحيلنا الغرض من هذه الفلسفة إلى نقطة التقاطع بين الواقع والعقلانية والروحانية، وهي محاور أساسية تُشكّل أنماط وجودنا من خلال الاستفادة من الإيمان بالإسلام في تغيير الإنسان والمجتمع والعالم. يؤكد القرآن قطعياً الفكرة المتمثلة في استحالة أن يحدث الإنسان أيّ تغيير إن لم يغيّر ما بنفسه. إنّ الهدف المنشود يقودنا منطقياً إلى النص القرآني لمعالجة تعقيده وبساطته العميقة. يبيّن التحليل الكلاسيكي للقرآن أنّه منظم حسب مواضيع (آيات مدنية وأخرى مكّية)، وذرائع (علل وأسباب)، وأيضاً في بعض المواقع آلية للنسخ أو التحديث (الناسخ والمنسوخ) للوحي. تقترح المقاربة الإقبالية للنصّ القرآني طريقة أخرى للتعامل مع المسائل العويصة التي يطرحها من خلال إبراز عمقه المنطقي الذي يبدو في مستويات مختلفة:

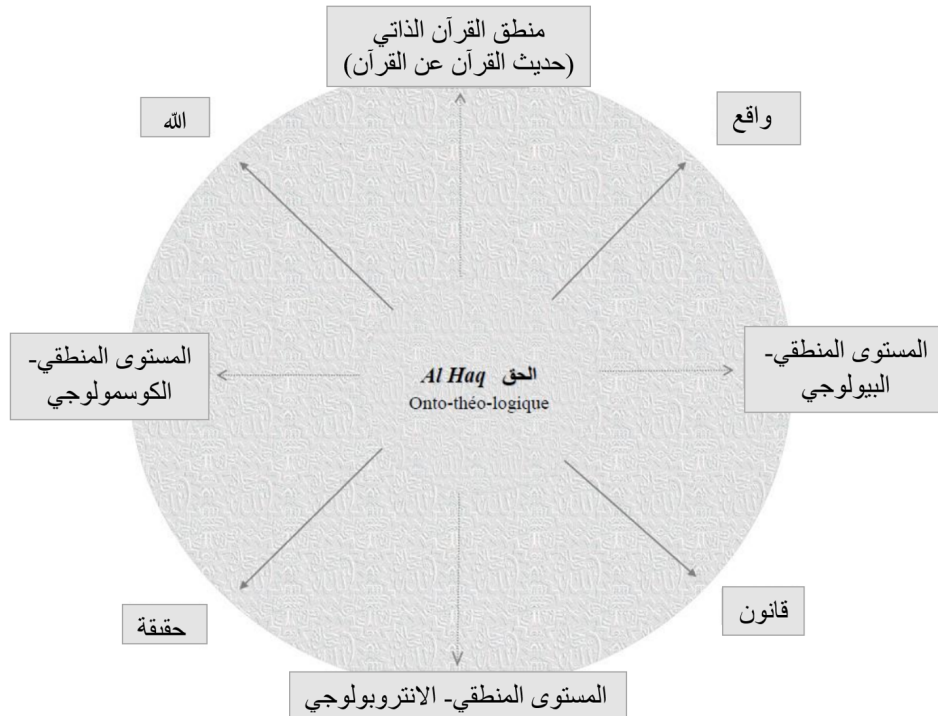
(أ) مستوى يتعلّق بالمنطق الذي يحكم القرآن ذاته (Méta-logique): نجد هنا آيات ذات مرجعية ذاتية، يتحدث فيها القرآن عن القرآن ذاته.

(ب) المستوى المنطقي-الأنثروبولوجي (Anthopo-logique): وهي المقاطع التي تشير بصفة خاصة إلى طبيعة الإنسان الأساسية، أي "الفطرة".

(ج) المستوى المنطقي-البيولوجي (Bio-logique): وهي العلامات الظاهرة والإثباتية لمبدأ خلاق.

(د) المستوى المنطقي-الكوسمولوجي (Cosmo-logique): ونجد هنا جانب الدهشة أمام عظمة (وعلمية) عملية الخلق المستمر، أي "تجديد الخلق".

ينبثق هذا العمق المنطقي من فكرة مركزية تنظم البنية المنطقية-الأنطولوجية-اللاهوتية وعملية هندسة المعنى: هي المتمثلة في فكرة الحقّ.



الشكل 1: التعقيد القرآني والعمق المنطقي

"سُئِرَ بِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"

وفي قلب النص القرآني بالتحديد، حيث تتدفق نبضاته الحيوية ويتجمّع النزول المنجّم لعلاماته المتعدّدة (آياته)، يسعى الإقبال إلى تحقيق هدفه النهائي. إذا كان الله نفسه يعمل كل يوم في الكون ليخلق العالم ويحافظ عليه، كيف يمكن للإنسان أن يستسلم لقدرية ليست فقط غير فاعلة (مواكبة الأحداث دائماً، واعتناق الذات بكرامة عند النجاح أو الشقاء)، وإنّما كذلك سلبية (أي أنه لن يكون للإنسان دور سوى الإفساد في الأرض، فينفرد الله وحده بعملية الخلق)، ليظلّ يعبد الحرف والفعل ضمن معتقد خرافي؟ كل شيء في القرآن يعبر عن فعل لا يُشتقّ منه المعنى من جذره إلاّ ليكسب العلامات والمعاني فعالية وجدوى. لا يمكن للفعل أن يكون نبتة صالحة إلاّ إذا وقع في إطار العمل والحركة أو عبر العلامات الواردة في الأحداث، وكلّ ما يحدث عرضياً (مُحدث) بوصفه متاخّات محتملة.

عندما يفقد الفعل قدرته على التأثير يفقد زخمه الحيوي: فهو، في أحسن الأحوال، يكرّس أفلاطونية غامضة، وفي أسوأها، يعبد وثناً. في التطهير التوحيد الذي أحدثه الوحي القرآني، يُخشى أن يؤدي تبجيل النص المقدّس إلى عبادة اللغة (لطالما اعتبر متحدثو اللغات السامية أنها لغات سماوية وخالدة) إذا لم يُترجم على الفور إلى أفعال تشارك على أحسن وجه في الخلق المستمر للعالم، لأن طرق التصرف والفعل هي التي تحدد في النهاية طبيعة العلاقة بكلمة ذات جوهر إلهي.

وعليه، فإذا كان فكر الإقبال "كلّ يوم هو في شأن" (الرحمن، 92)، فإنّه يُشرك الفرد كذلك في حركة دائمة هي عبارة عن رحلة استهلالية للـ"حق". فالحق مفهوم متعدّد المعاني يكون موضع تساؤل باستمرار طوال رحلة الوجود: من أكثر أنشطتها بساطة إلى أسمى التأمّلات لاستكشاف كل المعاني والدلالات وتجريبها. يتم صنع المسارات المؤدية إلى المستقبل بتواضع، ويتم تتبعها خطوة بخطوة، لكنها تهدف دائماً إلى المعرفة الإدراكية للحقّ. وهذا يعني الاستيعاب شبه الحسي الحركي للوقائع المادية والحقائق الميتافيزيقية وحقوق الأحياء، وربّما في نهاية المطاف- في إطار الوعد الأخير بمعنى- التجليات الإلهية.

لمزيد من المعلومات:

رضا بنكيران، الإسلام: في البحث عن استعادة المعنى. باريس، 2017، 516 صفحة (بالفرنسية) في طبعة أولى (في فرنسا)
Reda Benkirane, *Islam, à la reconquête du sens*. Paris, Éditions Le Pommier, 2017, 512 p.
وفي طبعة جديدة (بالفرنسية كذلك) في المغرب- الدار البيضاء
Nouvelle édition : Casablanca, La Croisée des Chemins, 2021, 544 p.

